الكتابة النسوية وسلطة اللغة الذكورية

الأستاذ: ناجي صالحي
قسم الأدب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة قاصدي مربـــاح- ورقلـــة

إن البحث في قضية النقد النسوي أو النسائي كما يسميه البعض، بحث إشكالي في قضية المصطلح، إذ لم يرسُ النقد الأدبي بعد على مصطلح جامع بين تقرير الجنسين حول إمكانية وجوده، فكما وجدنا الرفض الواضح لمصطلح النقد النسوي من قبل التنظير الرجالي وجدنا رفضاً نسوياً يحاول ردم الهوة بين الخطابين، وبعبارة أخرى فإننا نجد من بين رائدات الكتابة النسوية من ترافع لعدم التميز عن الكتابة الرجالية رغم ما فيها من إجحاف واضح، بل تسعى إلى التماهي في كتابة واحدة تعالج القضايا الاجتماعية والفردية بحكم دور كل فرد من موقعه.

وهنا لا نريد إعادة الحديث عن المصطلح المعجمي والفروق الاصطلاحية بين الأدب النسوي والأدب النسائي، أو الأدب الأنثوي وما إلى ذلك من المصطلحات، بل حديثنا عن هذا الأدب الذي يريد التخلص من سلطة الرجل اللغوية والأدبية، فهل استطاع الأدب والنقد النسوي مواجهة الخطاب الرجالي وتأسيس ذلك الخطاب النسوي بعيداً عن هذه السلطة؟.

تقول مي زيادة:(لو أبدلنا المرأة بالرجل وعاملناه بمثل ما عاملها فحرمناه النور والحرية دهوراً، فأي صورة هزلية يا ترى تبقى لنا من ذلك الصنديد المغوار)، هذا الإقرار النسوي من مي بالسلطة الذكورية التي صنعت التاريخ مثل ما صنع الرجل اللغة، وحمّلها بفحولة ألفاظه يؤكد على رغبة شديدة في البحث عن الإقرار بمشروعية الكتابة النسوية بكل ما تحمله من خصوصية، ومع اعترافنا بأن المرأة قد رافقت الرجل في كل هموم الحياة منذ بدء الخليقة، وأدركت أدوارها في الحياة،« غير أن الذي حدث هو غياب الأنوثة التام عن

التاريخ لأنها غابت عن اللغة وعن كتابة الثقافة، وتفردت الفحولة باللغة، فجاء الزمن مكتوباً ومسجلاً بالقلم المذكر واللفظ الفحل»[1] والذي وجه الأنثى إلى مهام محددة وفق ثقافته وقواعدها الثابتة.

وبالعودة إلى المرأة في الفكر العربي القديم نجد عبد الحميد بن يحي الكاتب ينتصر للذكورية في قوله:« خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً»[2]، وفي هذا يرى عبد الله الغذامي أن الكاتب« يعلن عن قسمة ثقافية يأخذ فيها الرجل أخطر ما في اللغة وهو اللفظ بما أنه التجسيد العملي للغة والأساس الذي ينبني عليه الوجود الكتابي والوجود الخطابي لها، فاللفظ فحل" ذكر" وللمرأة المعنى، لا سيما وأن المعنى خاضع وموجه بواسطة اللفظ وليس للمعنى وجود أو قيمة إلا تحت مظلة اللفظ»[3] وهنا يطرح الغذامي السؤال: هل بيد المرأة أن تكتب وتمارس اللغة واللفظ الفحل وتظل مع هذا محتفظة بأنوثتها أم أنه يلزمها أن تسترجل لكي تكتب وتمارس؟.

لقد عُرف العرب قديماً بالفصاحة والبلاغة، وهما منجز لساني ذكوري بِعدّ اللسان الذكر القادر على الإبداع، والكاشف عن عبقرية الشاعر الذي يلهمه زائره شيطان الشعر، ولا وجود لشيطانة تزور النساء وتلهمهم،« والشيطان لا يجالس إلا الفحول لأنه ذكر وليس أنثى، ولذا صارت العبقرية الإبداعية تسمى فحولة وليس في الإبداع أنوثة، وإذا ما ظهرت امرأة واحدة نادرة وقالت بعض الشعر فلا بد لها أن تستفحل ويشهد لها أحد الفحول مؤكداً فحوليتها وعدم أنوثيتها لكي تدخل على طرف صفحات ديوان العرب وتتوارى تحت عمود الفحولة»[4]، ولم ينصفها حتى هذا الشعر إذ ليس للقصيدة العربية القديمة سلطة على البيت إذا انسلّ منها وغرد بعيداً.

لكن هذا ما لم ينطبق على شاعرة عربية استطاعت أن تتجاوز عمود الشعر الذي فرض سلطته الذكورية على القصيدة العربية، إذ أنجبت نازك الملائكة قصيدتها الحرة، ورغم أنها جاءت بها إلى الوجود بعيداً عن بيت الرجل وعموده، إلا أنها لم تتخلص من أبوية البحر وسلطته،« وهاهي نازك، حاضنة الوليدة، تبادر إلى منح طفلتها اسماً ذكورياً، فتسميها" الشعر الحر" دون أن تلاحظ انصياعها لشروط الثقافة المذكرة وقد أظهرت نازك في مقامات عديدة خضوعها لشروط النسق الثقافي المذكر»[5]، ومع كل هذا التنازل من الشاعرة وخضوعها لشرط العبقرية القائم سلفاً، فهي لم تلق الاعتراف بالأسبقية في هدم

بناء الرجل العمودي، إذ عدت تجربتها الشعرية في قصيدة الكوليرا التي عاشت فيها هموم الإنسان وأحزانه، مجرد موشحات.

والملاحظ أن النقد العربي يحتكم إلى الموروث الثقافي الذي ينتشي فيه الرجل عند وصفه بالشدة والقسوة، وصعوبة المراس وعدم الاعتراف بسهولة، هكذا قابل النقد العربي الكتابة النسائية بعدم الاعتراف أو على الأقل التحفظ بحجة أن« الفكر الإنساني يَنتج عن وحدة حيّة هي مخ الإنسان وهذه الوحدة لا تختلف في طرائق التفكير إلا لبيان الفروق الفردية»[6] بعيداً عن الفروق الجنسية، هذا الرأي من باب رفض التميز النسوي في الكتابة أو اختراق محظورات السلطة الأبوية، التي لا مناص للمرأة من العودة إليها والاحتكام إلى قواعدها.

أما من باب المساواة فإننا نجد رفضاً تتزعمه فئة نسوية ترى أن فكرة الكتابة النسوية فيه تمييز واضح على أساس الجنس، وهنا نجد الناقدة خالدة سعيد ترى بأن المناداة « بكتابة إبداعية نسائية تمتلك هويتها وملامحها الخاصة يفضي إلى واحد من الحكمين: إمّا كتابة ذكورية تمتلك مثل هذه الهوية ومثل هذه الخصوصية، وهو ما يردها بدورها إلى الفئوية الجنسية، فلا تعود صالحة كمقياس ومركز، وإمّا كتابة بلا خصوصية جنسية ذكورية، أي كتابة بالإطلاق، كتابة خارج الفئوية، مما يسقط الجنس كمعيار صالح للتمييز إلى ذكوري ونسائي»[7]، وهذا لن يتحقق أبدا في ظل رواج النسوية الراديكالية المنادية بالانفصال التام عن عالم الرجل والابتعاد عنه فكرياً وثقافياً، وفي الوقت نفسه نجد هذا الاتجاه يرتكز في فكره ولغته على لغة وخطاب أدبي ونقدي ذكوري، دون التفكير في إعادة تشكيل الموروث اللغوي بما يخدم هذا التوجه، وهذا ما جعل فئة أخرى تسمى تيار النسوية الليبرالية إلى الدعوة إلى تكريس التنافسية الفردية القائمة على المساواة بين الجنسين وإدماج الكفاءات دون الاهتمام بالتمايز الجنسي، وقاعدتهم في ذلك هي العمل على معالجة القضايا الإنسانية من منطلق واقعي منطقي[8]، لكن هذا التيار لم يهتم بالبحث في مؤسس هذه الواقعية وهذا المنطق والبحث في خلفياته الجنسية.

أما التيار الأكثر انتشاراً في الأوساط النسوية هو تيار النسوية ما بعد البنيوية، إذ ترى صاحبات هذا التيار أن الفروق ليست نوعية أو جنسية، بل هي فروق لغوية تأسست

من خلال التأنيث والتذكير في اللغة بالأساس[9]، وانتقلت بذلك إلى الفكر والثقافة لتتحول إلى نسق ثقافي يروجه المجتمع.

لتبقى سلطة الرجل تؤثر في الخطاب الأدبي والنقدي النسوي الذي يتأسس على المرجعية اللغوية الذكورية وإن ظهرت تلك المحاولات الفعلية رغم صعوبة الأمر، لتجاوزه، وتأسيس ما يمكن تسميته بالخطاب النقدي النسوي، « وإذا سلمنا بالفوارق الجنسية بين المرأة والرجل كان لا بد لنا أن ننتظر اختلافاً نوعياً بين مواهب الجنسين، لا شك في أن التفكير النسوي سيكون وجهة نظر جديد بالنسبة إلى التفكير الإنساني»[10]، وزاوية أخرى لرؤية واكتشاف الوجود.

الهوامش:

1- عبد الله الغذامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 2006، ص 11.

2- إحسان عباس: عبد الحميد بن يحي الكاتب وما تبقى من رسائله، 29 دار الشروق، عمان، الأردن، 1988، نقلاً عن الغذامي: المرأة واللغة، ص 07.

3- عبد الله الغذامي: المرأة واللغة، ص 07.

4- عبد الله الغذامي تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص 12-13.

5- الغذامي تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، ص 19.

6- طيبة أحمد إبراهيم: تطابق الصور في متواز الأعمال الروائية للمرأة والرجل، مجلة عالم الفكر، ع: 2، مج: 32، 2003، ص 227.

7- خالدة سعيد: المرأة ،التحرر، والإبداع، سلسلة نساء مغاربيات، مؤسسة الفنك، 1991، ص 86.

8- علي نصوح مواسي: النسوية في النقد الأدبي www.arab48.com .30: 23 .28/11/2017

9- علي نصوح مواسي: النسوية في النقد الأدبي www.arab48.com .30: 23 .28/11/2017

10- نازك الملائكة: التجزيئية في المجتمع العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1974، ص 45.